Ethics Relativity in Postmodernism

Deconstructing Values in Discourse of Bauman, Foucault

Dr. Anas Bouslam[1]

Abstract

At the beginning of this research, we address the role of ethics in a globalized consumerist world, and distinguish between the concepts of "solid modernity" and "liquid modernity", as formulated by the Polish philosopher Zygmunt Bauman. One of the manifestations of these concepts is the transformation of human life into a "liquid life." Consequently, human relationships are increasingly governed by the logic of utilitarianism and pragmatism, based on the principles of acquisition and consumption, or abstention and rejection, much like any commodity or consumer product. Speed and instability have thus become the defining traits of liquid modernity, and similarly of liquid life, including ethics and values. The only constant element today is change and instability. Then, we proceed to examine the structure of ethics according to the French philosopher Michel Foucault, focusing on the concept of the self and its position, the relationship between ethics and power, and the issue of ethics and freedom. Foucault framed the relativity of ethics through his concepts and analytical approaches, particularly regarding the re-reading of the self, the relationship between ethics and power, and the connection between ethics and freedom. Ethics, according to Foucault, becomes a "project of beauty", growing through the self's engagement with and challenge to power. In his exploration of the aesthetics of behavior and the mechanisms of beautiful existence, ethics is revealed as a conscious practice of freedom. Life, thus, becomes an art form, and art no longer concerns itself solely with objects or is limited to artists; through freedom and the available space, individuals can turn their life into an art piece, making it worthy of being lived. It concludes with a critical analysis of the break with totalizing values.

Keywords:

Zygmunt Bauman, Michel Foucault, Relativity of Ethics, Postmodernism.

1 - Educational inspector, PhD, Hassan II University, Casablanca, Morocco.

نسبيَّة الأخلاق في ما بعد الحداثة: تفكيك القِيَمة في خطاب (باومان) و(فوكو)

د. أنس بوسلام[١]

ملخّص

نتنـاول- في بدايـة البحث - مكانـة الأخلاق في عالم اسـتهلاكي معولم ثـم نميّز بين مفهـوم الحداثة الصلبة والحداثة السـائلة عند الفيلسوف البولوني (زيجمونت باومان- Zygmunt Bauman)، والتي كان من تجلّياتها تحوّل الحياة الإنسـانية إلى «حياة سـائلة». فغدا التعامل مع الروابط الإنسـانية بمنطق النفعية والبراغماتية، القائم على أساس الإقبال والشراء، أو الإحجام والاستغناء، مثل أيّ سلعة أو منتج استهلاكي، وأضحت السرعة وعدم الثبات السِمَة الأساس للحداثة السائلة، وكذلك للحياة السائلة، بما في ذلك الأخلاق والقِيَم، فأصبح العنصر الثابت الوحيد اليوم هو التغيّر وعدم الثبات.

ننتقل – بعد ذلك – إلى دراسة بنية الأخلاق عند الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو- Michel Foucault) من خلال الكشـف عن مفهوم الذات وموقعها، وقضية الأخلاق والسلطة، ومسألة الأخلاق والحرية، فأطّر نسبيّة الأخلاق بما وضعه من مفاهيم ومداخل تحليلية تتعلّق بإعادة قراءة الذات، وعلاقة الأخلاق بالسلطة، وكـذا بالحُرّيّة، وبوصفهـا (أي الأخلاق) مشروعًا جماليًّا ينمو بفعل الذات وتحدّيها للسـلطة. ومن خلال البحث في اسـتطيقا السلوك وآليات الوجود الجميل، تغدوالأخلاق ممارسـة واعية للحُرّيّة، فتصبح بذلك الحياة تحفة فنّيّة، ولا يصبح الفنّ يهتم بالأشياء فقط، أو حكرًا على الفنّانين، بل يمكن للفرد من خلال حُرّيّته، والمسـاحة المتوفّرة لـه، أنْ يجعل حياته تحفة فنّيّة، وأنْ يجعل من حياتـه جديرة بأنْ تُعاش. ونختم البحث بتحليل نقدي للقطيعة مع القِيَم الكليّة.

الكلمات المفتاحية: (زيغمونت باومان)، (ميشيل فوكو)، نسبية الأخلاق، ما بعد الحداثة.

١ - مفتش تربوي وحاصل على درجة الدكتوراه، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب.

مقدّمة

يندرج هذا البحث الذي نحاول من خلاله الحديث عن الأخلاق عند (باومان)[١] و(فوكو)[٢] ضمن الفلسفة «المابعد حداثية»، حيث تحدّث (فوكو) - مثلاً - في كتاباته الأخيرة عن الأخلاق، واعتبر نفسه صاحب نظرية خُلُقية معاصرة، مستلهمًا إيَّاها من تراث فلسفي قديم يرجع للفترة اليونانية.

ويكتسي الموضوع أهمية كبيرة، باعتبار ما للأخلاق من قِيَمة فلسفية عند مختلف التيَّارات الفلسفية، ومن قِيَمة اجتماعية عند مختلف الشعوب، والأهمية الأكبر ترجع إلى الطريقة التي حلّل بها كل من (باومان) و(فوكو) الأخلاق، فقد وضع الأول ما سمّاه الحداثة السائلة، وعلى أساسه بنى تصوُّرًا جديدًا للمسألة الخُلُقية، أما الثاني فقد تجاوز كل النظريّات الخُلُقية التي ركزت على الـ «ما ينبغي»، ليقدّم نظرية خُلُقية تدرس السلوك الإنساني كما هو، دون فرض قوانين وقواعد خارجة عنه.

تتمحور إشكالية البحث في التساؤل المركزي الآتي: كيف بنى كل من (باومان) و(فوكو) تصوّره الفلسفي الخاص لنسبية الأخلاق في ما بعد الحداثة؟

ولمعالجة هذه الإشكالية تبنينا المنهج التحليلي؛ باعتباره منهجًا يقوم على تقسيم أو تجزئة المشكلة البحثية إلى العناصر الأولية التي تُكَوِّنها؛ لتسهيل عملية الدراسة، وبلوغ الأسباب التي أدَّت إلى نُشوئها، فضلاً عن خصوصيّاتها ومميّزاتها، وغير ذلك.

١-(زيجمونت باومان- Zygmunt Bauman): فيلسوف وعالم اجتماع بولوني (١٩٢٥ - ٢٠١٧).

٢- (ميشيل فوكو Michel Foucault): مفكر وفيلسوف فرنسي (١٩٢٦ - ١٩٨٤).

أوَّلًا: مكانة الأخلاق في عالم استهلاكي مُعَولَم:

إنّ العـالم اليوم كما يراه (باومان) يعيش أزمة خُلُقيـة نتيجة تصاعد النزعات المادية المُتغوّلة في اللـذّة، والشـهوة، وقِيَم الاسـتهلاك الفوري، وهذا ما أفـرز لنا قِيَما عاريـة ومتنصّلة من أي رابـط روحي ميتافيزيقي؛ لأنّها جعلت من الاسـتهلاك ديدنها الوحيد، وبهذا انحرفت كل القِيَم عن مسـارها الأول، وتبدّلت من مدلولاتها الأصلية، ودخلت حيّز السيولة والبحث عن السعادة الفورية والإشباع الآني. وكون مجتمع المستهلكين قائم على أساس وعد بإشباع الرغبات، تكون الدورة الحقيقية للمجتمع الاستهلاكي قائمة على الحفاظ على استمرار الاقتصاد، وتتلخّص في مقولة :»اشترِ، استعمل، ارمِ»[1]، فما تستعمله مرّة لا يعيد تكراره مستقبلاً.

إنّ المجتمع الحديث السائل مجتمع النفايات بالدرجة الأولى؛ لأنّه يستهلك بطريقة متواصلة، فهو مجتمع البدايات الجديدة الذي يتخلّص من كل الأشياء التي لا تتوافق مع «موضة» العصر. فالمجتمع المتمركز على الاسـتهلاك، لا يعـرف إلا السرعة، والحركـة، والإسراف، والتبذير.. ولهذا، يرى (باومان) أنّ ما بعد الحداثة لها «قدرة تدميرية قائمة على الاستهلاك التام والتقويض التام، والتفكيك التام لكل ما هو قائم، وبالتالي فهي لا تسعى لإحلال نموذجٍ للحياة محلّ آخر، إنّها تعد نفسـها لحياة دون حقائق ومعايير»[2]، فلا وجـود لحقائق كلية ثابتة، وحتى لِقِيَم خُلُقية صلبة دائمة، بل كل ما هنالك صيرورة وسيولة متواصلة.

وبالفعل، فإنّ الثقافة السـائدة في المجتمع المعاصر ثقافة استهلاكية، وهي الصورة الجديدة التـي تطبع المنظومـة القِيَمية المعاصرة، فهذه القِيَم تتربّع في أساسـها على الكسـب، والربح، والمنفعة التي تروّج لها وسائل الإعلام. وفي هذا الصدد، يقلب الناقد الثقافي (مايك واطسون- Mike Watson) المقولة الديكارتية الشـهيرة: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، التي شكّلت الأساس

١- زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص١٩٩.

٢- مـاري كليجز، بـاري بيرك، إيريك دورسـون، وآخرون: مـا بعد الحداثة دراسـات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب، ص٤٢.

الـذي قامت عليه الحداثة الفكرية والفلسـفية في الغرب، إلى «أنا أتسـوّق، إذن أنا موجود»[١]، ويعني ذلك أنّ السلعة هي مركز الكون ومعبد الإنسان الراهن، فبعدما كان الإنسان مركزَ الكون، كما خطّطت له الفلسفة الهيومانية[٢]، صارت السلعة اليوم مركزاً يتعبّد الإنسان في محرابها، وبهذا أفرغ الإنسان من معناه الروحي، وصار دالاًّ بلا مدلول.

لقد غيّر المشروع الحداثيّ موقع الإنسان داخل المنظومة الأنطولوجية. فبعدما كان خاضعًا لسلطة الكنيسة، أصبح سيّدًا على الكون، وصار بذلك مرجعًا صلبًا لكل القِيَم الرامية لتحقيق جنّة الخلد على الأرض، ولكن ما لبثت هذه القِيَم أنْ انحرفت عن مسـارها الأوّل، لتدخل في طورها الثاني المتمثّل في السـيولة -بتعبير (باومان)-. وهذا راجع إلى التقدّم التكنولوجي الهائل، وسيادة منطق المتلازمة الاستهلاكية، الذي حوّل الإنسان إلى مجرّد سلعة، وهو ما انعكس سلبًا على نفسية الإنسان المعاصر، الذي لم يعد يركن لقِيَم الثبات، بل يسـير وفق القِيَم الخُلُقية - البراغماتية - الاستهلاكية، التي تتسم بالمرونـة، والسـيولة، والمتنصّلة من أي رابط ميتافيزيقي لاهوتي، وهذا مـا لاحظه (باومان)، وراح يقدّم مساءلة نقدية لهذه القِيَم الخُلُقية المتفشّية في المجتمع الراهن، محاولاً إيجاد مخارج لذلك[٣].

تـزداد أهمية موضوع الأخـلاق ومكانتها في عالم ما بعد الحداثة؛ لكـون العالم اليوم بأمسّ الحاجة لعودة القِيَم الخُلُقية المرتبطة بالمسـؤولية؛ لأنّها الكفيلة بقيادة الإنسانية نحو برّ الأمان، وإنقاذ الذات البشرية من عالم التشرذم والتشـظّي، الذي اسـتفحل خطره مع سـيطرة النموذج الاسـتهلاكي، وسـيرورة النزعة الفردية، وطغيان مبدأ اللذة على الحيـاة المعاصرة. وهنا، تغدو أهمّية تحيين الهَمّ الخُلُقي، الذي دفع (باومان) إلى تبني الخُلُقية اللفيناسية[٤]، وتنزيلها على أرض

١- معن الطائي: السرديات المضادة (بحث في طبيعة التحولات الثقافية)، ص٤٠ - ٤١.

٢- الهيومانية: تطلق على الآراء الفكرية والفلسفية القائلة بوجود قيمة اسثنائية رفيعة للإنسان وللتجارب والرغبات والحقوق الإنسانية. للتوسع في هذا المفهوم، يُنظر: محمد هادي طلعتي، الهيومانية (دراسة تحليلية نقدية للأسس والجذور)، ص١٥ - ٢٤.

٣- عفاف جدراوي: الأخلاق كقيم استهلاكية عند زيجمونت باومان، ص٨٣.

٤- نسـبة إلى (إيمانويـل لفيناس -Emmanuel Levinas)، فيلسـوف يهودي فرنـسي لتواني الأصل (١٩٠٦ - ١٩٩٥).

الواقع. وهذا من أجل تجاوز الأنا المنغلق على ذاته، والغارق في متعته المادية، وبالتالي الانفتاح على الآخر، وتحمل مسؤوليّته قبل مسؤولية الأنا في حد ذاتها[١]. وبهذا يتحقّق العالم الإنساني وتتشارك الذوات الهَمّ الإنساني، ومنه إمكانية خَلْق عالم تعاوني «بين ذاتي» (Intersubjective)، تؤطّره الأخلاق وتوجّه مسار رحلة الإنسان في عالم الحداثة السائلة المحفوفة بالمخاطر غير المتوقّعة، والمليئة بالبدايات الجديدة على حدّ تعبير (باومان).

إنّ ما يواجهه الإنسان المعاصر يتمحور حول وجوده الخُلُقي، الذي انسلخ عنه، مُحدِثًا شرخًا كبيرًا في طريقة عيشه، التي تحوّلت إلى شبح يطارده، فهو في مجتمع مفرط في الفردانية. وأضحى الاستهلاك ثقافة تنخر في عظم الإنسان المستسلم، حتى أنّه لم يعد هناك أمرٌ لم تَطَله يد الاستهلاك[٢]، فنجد «استهلاك اللحظة والمكان، حتى الطفولة لا تسلم من الاستهلاك: سعي محموم للسلع، ونهم للاقتناء، وسيل جارف من الإعلانات التي لا ترى في الطفل مواطنَ المستقبل، بل مستهلكَ الحاضر»[٣].

أصبح المجتمع المعاصر يتّسم بكونه حالة مدنية مبنية على الاستهلاك، وتسمه ميزة فقدان الاستمرارية والثبات؛ حيث التحوّل الدائم، المقرون بغياب الإحساس بالسلام والطمأنينة، سمة أساس للإنسان المعاصر.

في زمننا هذا، يرى (باومان) أنّ الاستهلاك قد تجاوز فكرة السلعة المادية إلى استهلاك العواطف والعلاقات الإنسانية وتكنولوجيا التواصل، بطريقة أثّرت كثيرًا على معاني الحياة والحب والأخلاق، وبالطريقة التي جعلتنا مراقبين باستمرار؛ بسبب استهلاكنا النهِم للتكنولوجيا الحديثة، ما أدّى إلى سيولة الخوف تحت وطأة الاستهلاك والقلق مما يخبئه الغد، وأنتج لنا اضطرابًا خُلُقيًّا أصبح معه الشرّ مُبرَّرًا حتى من جانب الدولة.

١- عفاف جدراوي وعبد الغاني بوالسكك: الأخلاق كأفق لعالم الحداثة السائلة (زيجمونت باومان قارئا لإمانويل لفيناس)، ص٣٤.

٢- منال خوالدية ومصطفى كيحل: أخلاق ما بعد الحداثة في أفق الاهتمام بالذات عند ميشال فوكو، ص٤٧١.

٣- زيجمونت باومان: الحياة السائلة، ص٨١.

ويرى (باومان) أنّ ما يحكم العلاقات في مجتمع الاستهلاك، هو التعامل مع العاطفة بالتعامل نفسه الذي نتعامل به مع السلعة، فهو عالم من الصلات العابرة التي يمكن الاستغناء عنها كأيّ منتج جرى استهلاكه، وهي الصلات، أو العلاقات، التي يطلق عليها علاقات «الجيب العلوي»، كناية عن سهولة الاستغناء عنها بعد إشباع الاستهلاك، ويتناول (باومان) الحياة العاطفية، فيدخل إلى عالم الصلات العابرة، حيث كلّ الصلات يمكن الاستغناء عنها - مثل منتج جرى استهلاكه -، فالعين تمتدّ دوما إلى ما وراء اللحظة، وتتطلّع إلى ما يجري تزيينه أنّه الأفضل، غير راضية بما هو متاح.

إنّ التحديث المتتالي والاستهلاك المستمرّ قد تسبَّبا في حالة من الفردية طغت على أهمية الجماعة، فأصبح كل فرد يواجه الحياة بمفرده، وأضحى المجتمع عبارة عن جماعة تواجه مشاكلها بشكل فردي، كل فرد على حدة، فأصبحت التجمّعات البشرية، في الحفلات والمعارض والمنتجعات السياسية والمراكز الرياضية، تجمعات صاخبة تخلو من أي علاقات إنسانية، بل هي علاقات سطحية تقوم على ممارسة اللحظة الحاضرة، واستهلاكها دون الاهتمام بتكوين روابط حقيقية.

يشرح (باومان) في كتاب «الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللا يقين» تصوّره عن زمننا المعاصر وفق الترتيب الآتي: الحياة الحديثة السائلة ومخاوفها، وحركة الإنسانية الدائبة، والدولة والديموقراطية وإدارة الخوف معًا.. ولكن فرادى، وأخيرًا: اليوتوبيا في عصر اللا يقين.

والأزمنة السائلة في تفسير (باومان)، هي حياتنا المعاصرة التي تعاني من تحول في هياكل المجتمعات، من الصلابة إلى السيولة - كما هو معتاد -، وهي التحوّلات التي يرى (باومان) بدايتها من تفكّك الأبنية المجتمعية والمؤسّسات التي تضمن العادات المجتمعية وأنماط السلوك، والتي لم تعد قادرة على الحفاظ على عادات المجتمع وسلوكه لفترات طويلة كما في السابق، وهو ما أدّى إلى ارتفاع رصيد المخاوف؛ نتيجة غياب التوقّع، وتآكل العُرف، ومنظومة الأخلاق الاجتماعية[1].

١- للتوسع في هذه الفكرة، يُنظر: زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللا يقين)، ص٢٩ - ٤٩.

ثانيًا: مفهوم الحداثة الصلبة والحداثة السائلة عند (باومان):

عن الحداثة، والحداثة السائلة والصلبة، يقول (باومان): «فمن السمات الأصيلة للحداثة أنْ يكون الشيء في أيّة مرحلة، وفي كل الأوقات، ‹ما بعد الشيء›. وعلى مر الزمان، ظلّت الحداثة تغيّر شكلها... فما كنّا نسمّيه (خطأً) ‹ما بعد الحداثة›، وما قرّرتُ أنْ أسمّيه بوضوح ‹الحداثة السائلة›، إنّما هو الإيمان المتنامي بأن التغيّر هو الثبات الوحيد، وأنّ اللا يقين هو اليقين الوحيد؛ إذ كانت الحداثة في المئة عام الماضية، تعني محاولة الوصول إلى ‹حالة نهائية من الكمال›، أمّا الآن، فإنّ الحداثة تعني عملية تحسين وتقدّم لا حدّ لها، من دون وجود ‹حالة نهائية› في الأفق، ومن دون رغبة في وجود مثل هذه الحالة»[1].

وفي مقابلة بين الحداثتين الصلبة والسائلة، يقول (باومان): «لم أنظر من قبل، ولا أنظر الآن، إلى الصلابة والسيولة باعتبارهما ثنائية متعارضة، بل أنظر إليهما على أنّهما حالتان متلازمتان تحكمهما رابطة جدلية، تشبه الرابطة التي ربما كان يقصدها (فرانسوا ليوتار) عندما قال: إن المرء لا يمكن أن يكون من أهل الحداثة من دون أن يكون أولاً من أهل ما بعد الحداثة. إنّ البحث عن صلابة الأشياء والحالات هو ما دفع إلى إذابتها، وأبقى على استمرارية الإذابة، ووجّه مسارها، فلم تكن السيولة خصمًا معاديًا، بل أثر من آثار البحث عن الصلابة... وهكذا، فإنّ افتقار السائل السيّال النضّاح النزّاز إلى شكل محدّد، هو ما يستدعي جهود التبريد والتخميد والقولبة، فإذا كان من شيء يسمح بالتمييز بين الحداثة في مرحلتي ‹الصلابة› و‹السيولة› (باعتبارهما متتالية زمنية)، فإنّه التغيّر في الأغراض الكامنة وراء هذه الجهود»[2].

ما أراد قوله (باومان)، إنّ الحداثة الصلبة تشبه المعرفة اليقينية والحقيقة المطلقة الثابتة، أمّا الحداثة السائلة فهي رحلة الإنسان في البحث عن تلك المعرفة اليقينية، وهكذا، فإنّ كل معرفة يقينية (صلبة) سرعان ما تحتاج لنقد وتفكيك، فتصبح «سائلة»، لكن حالتها سرعان ما تحتاج لتثبيت؛ وذلك بحثًا عن معرفة أو حقيقة جديدة نراها أكثر صلابة من السابقة، لكن لا نلبث أن

١- زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٥ - ٢٦.

٢- زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٦.

نعيد إسـالة هذه الحقيقة وتفكيكها، وهكذا دواليك. وفي هذا الصدد، يقول (باومان): «لم يكن السـبب الأصلي وراء ذوبان المراكز الصلبة الراسـخة مجرّد عداوة للصلابة بحدّ ذاتها، بل حالة من عدم الرضى بدرجة الصلابة التي تتّسم بها المراكز الصلبة المتوارثة... خلاصة القول، إذا كان جوهر الحداثة في مرحلة الصلابة يتمثّل في التحكّم في المسـتقبل وتثبيته، فإنّ شـغلها الشاغل في مرحلة السيولة، إنّما يتمثّل في ضمان استقلال المستقبل وحرّيّته»[1].

وتجدر الإشـارة إلى أنّ (باومان)، بعد صـدور كتاب «الحداثة السـائلة»، أنتج مجموعة من الكتب هي بمثابة تطبيقات لمفهومه السابق، وهي وفق الآتي:

١. الحياة السائلة.

٢. الأخلاق في عصر الحداثة السائلة.

٣. الثقافة السائلة.

٤. الحب السائل.

٥. الخوف السائل.

٦. المراقبة السائلة.

٧. الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللا يقين.

٨. الشر السائل.

وفي تفسيره للحداثة السائلة وإشكالية السيولة، يقول (باومان): «تُعزى (السيولة) التي تتَّسم بها أزمتنا في الأصل إلى (تفكيك النظم) لمعنى فصل السلطة (القدرة على فعل الأشياء) عن السياسة (القدرة على تحديد الأشياء التي ينبغي فعلها)، وما يصاحب هذا الفصل من غياب للقوّة الفاعلة أو ضعفها... إنّ أزمتنا تُعزى -أيضًا- إلى (تعدّد مراكز)؛ الفعل على كوكب تجمعه شبكة كثيفة من علاقات الاعتماد المتبادل. باختصار شـديد، في ظلّ حالة السيولة، كلّ شيء يمكن أنْ يحدث، ولكن لا شيء يمكن أن نفعله في ثقة واطمئنان، فتتولّد حالة من اللا يقين، تجمع بين الإحساس بالجهل (استحالة ما سيحدث) والعجز (استحالة منع ما سيحدث)، والإحساس بالخوف، الذي

١- زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٢٦.

ينبث في النفوس من دون أن تستطيع إدراكه ولا تحديده ولا وصفه، خوف بلا مرساة، خوف يبحث عن مرساة في تهوّر واندفاع»[١].

إنّ المرجعية الفكرية لرؤية (باومان) عن الحداثة السائلة، هي في الحقيقة تردّ إلى المجتمع الغربي بصفة عامّة والمجتمع البولندي بصفة خاصّة؛ حيث كانت رؤيته تشاؤميّة لمستقبل الحداثة الصلبة وما بعد الحداثة (السائلة)، هذا الواقع ميّزه أفول القِيَم الخُلُقية للمجتمع الغربي، ونجد ما يميّز فكر (باومان) الحداثيّ هو استخدامه لمصطلح السيولة الذي يعني الميوعة، والذوبان، والتغيّر واللا استقرار، وتوظيفه في ميادين مختلفة، منها: العقلانية، والأداتية، والتقنية، والعلمية. مضافًا إلى ذلك، نجد (باومان) اتجه بالقصد والغاية نحو محاولة تحرير الفرد من قيود المجتمع، المتمثّلة في العادات والتقاليد، لهذا حاول (باومان) ردّ الاعتبار إلى أنسنة الإنسان الذي سيطرت عليه النزعة الاستهلاكية والبيروقراطية، وجرّدته من إنسانيّته، بحيث صارت العلاقات الإنسانيّة، في عصر الحداثة السائلة، أشياء تستهلك وتخضع لمعيار التقويم، ففي عالم السيولة تغيّرت القِيَم والهُويّات، وهو ما أثّر بدوره على ثبات القِيَم، وصلابة الأخلاق التي تواجه منفعة الكسب والاستهلاك، فتكون معرضة للهزيمة والتطويع، من هنا تطرأ تحوّلات يبدأها (باومان) من تفكّك البنيات المجتمعية والمؤسّسات التي تتضمّن العادات وأنماط السلوك. يترتب على هذا الأمر مخاوف في منظومة الأخلاق الاجتماعية، فتجد الأفراد يشعرون بالتهديد الدائم من المستقبل، والخوف المستمرّ من مصيرهم المجهول، هذا راجع إلى السيولة والسرعة واللا يقين. واعتبر (باومان) أنّ المشروع الحداثي الذي تأسّس تحت شعار «النظام»، والقانون، والامتثال للسلطة، والاعتماد على العقلانيّة أدّى إلى ظهور «الهولوكوست»[٢].

يرى (باومان) أن وقوع «الهولوكوست» كان مؤشّرًا تاريخيًّا واضحًا على الانتقال إلى زمن الحداثة السائلة. لكنّنا لا نخفي اختلافنا مع هذا الطرح؛ حيث أغفل (باومان) – في هذا السياق - مجموعة من اللحظات التاريخية خلال الفترة المعاصرة، يمكن اعتبارها علامات فارقة ومؤشّرات

١- زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ص٣٣.

٢- جهينة قبلي وريم بن سديرة: الحداثة السائلة عند زيغموند باومان، ص٦٣.

حقيقية على التحوّل المذكور، نذكر على سبيل المثال الاستعمار الغربي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيّة، وما ارتكبه من جرائم وخطايا إنسانية وخُلُقية وحضارية.. ومن النماذج أيضًا، القضيّة الفلسطينية، والدعم الغربي للمشروع الصهيوني، وغير ذلك كثير.

وإن كان (باومان) قد أشار على استحياء لبعض هذه اللحظات في سياق كتاب آخر، جاء فيه: «واتضح أنّ أفق استعمار الأراضي مترامية الأطراف هو باعث قوي على فكرة التنوير، الذي تقوم به الثقافة. وأضفى على رسالة الرعوية بُعدًا جديدًا تمامًا وعالميًّا. ففي صورة مرآتيّة لفكرة تنوير الشعب، تشكّل مفهوم رسالة «الرجل الأبيض وعن إنقاذ البرابرة من حالتهم البربرية»[1]. وهكذا يخلص (باومان) بأنّ منظومة قِيَم الحداثة الغربية قد انقلبت على عقبيها، وانتهت إلى خيبة أمل لم تكن في الحسبان، ولهذا حكم عليها بالفشل؛ كونها انتهت إلى أزمات شاملة.

لقد طرحت الحداثة السائلة جملة من المخاوف والمشاكل؛ بسبب الوضع الذي وصل إليه المجتمع الإنساني، وذلك من خلال التحوّلات التي طرأت على مختلف جوانب الحياة، ومن بين هذه المخاوف: انتشار الخوف والظلم، ولهذا يرى (باومان) أن الاستثمار في الخوف هو التجارة الرابحة في زمننا المعاصر. ففي هذا الزمن، اعتراض غياب العدل سبيل السلام، ولهذا صار العدل قضية عالمية.

في ظلّ سيادة العولمة والمجتمعات المفتوحة، أصبحت البشرية وحدة واحدة، وقد تسبّبت العولمة السلبية في احتقار مبدأ سيادة الأرض، وكذلك عدم احترام حدود أيّة دولة. ففي كوكب تحكمه العَولَمة السلبية لا سبيل إلى تحقيق العدالة، باعتبارها الشرط الأساس للسلام الدائم؛ حيث يقول (باومان) في هذا الصدد: «فانفتاح المجتمعات بفعل العَولَمة السلبية هو نفسه السبب الرئيس للظلم، ومن ثَمَّ فهو بطريقة غير مباشرة السبب الرئيس للصراع والعنف. فبينما تنعم النخبة بحرّيّة الانتقال إلى عوالم متخيلة، يسقط الفقراء في مستنقع الجريمة والفوضى»[2].

أي إنّ العَولَمة السلبية هي السبب في وقوع الظلم والصراع والعنف، فالدول الغنية تتمتّع بحُرّيّة

١- زيجمونت باومان: الثقافة السائلة، ص١٧.

٢- زيجمونت باومان: الثقافة السائلة، ص٣١.

الانتقال، على عكس الدول الفقيرة التـي تقع في الفوضى والجريمة. فالمنظّمات الدولية، مثل البنك الـدولي وصندوق النقد الدولي، ومنظّمة التجارة العالمية، قـد جلبت معها آثارًا خطيرة، كالتعصّب الدينـي والقومية والإرهاب. وهي منظّمات، في ظاهرهـا، تبدو ذات طابع إيجابي، لكنّها في حقيقة الأمر لا تخدم إلا مصالحها.

لقد طغت - في الحياة السائلة – الفرديةُ، وانهارت الروابط الإنسانية، واختفى التكافل. أدّى كلّ هذا إلى نشر الخوف، مضافًا إلى ما جلبته العولمة السـلبية من عنف، ومخاطر، وخوف؛ حيث أصبحت الدولة غير قادرة على حماية المجتمعات، وهذا ما جعل المجتمع عرضة للمشـاكل؛ إذ أصبحت الدولة مهتمّة بمصالحها فقط، وبقائها في السلطة[1].

ثالثًا: مفهوم فن الحياة وعدم ثبات القِيَم عند (باومان):

يقـول (باومان) في كتابه فن الحياة: «نحن جميعنا فنّانو حياتنا، عرفنا ذلك أم لم نعرف، أردنا ذلـك أم لم نرد، أحببنا ذلـك أم لم نحب. أنْ تكون فنّانًا، يعني أنْ تعطي شـكلَ ما هو غير قابل للتشـكيل أو غير قابل للتكوين. وأن تكـون فنّانًا، يعني أن تتلاعـب بالاحتمالات، وأن تفرض نظامًا، وأن تنظّم مجموعة من الأشياء الفوضويّة والعشوائيّة وذات الصدفة، وغير المتنبَّأ بها، من خـلال جعل بعض الأحداث الواقعية تحدث أكثر من الأخرى. وأن تنظّم (أو أن تدير؛ التعبيران متطابقـان)، يعني أنْ تنجز الأشـياء من خـلال جمعها مع بعضها، وأن تديـر ممثّلين مختلفين، ومنفصلين، ومبعثرين (افتراض ضمني؛ لن يحدث مثل هذا الجمع والتعاون بغير تلك الطريقة). وللتعبير عن المضمون، نتحدّث غالبًا عن الحاجة إلى تنظيم الأشياء، أو في الواقع نتحدّث عن تنظيم نفسي (في تلك الحالة نشير إلى الحياة بشكل فني)، وبعض الأحيان نفسّر، ولكن نفترض دائما، أنّه هذا بالضبط ما يجب أنْ نفعله إذا ما رغبنا في أنْ ننجز الأشياء»[2].

ينطلـق (باومان) في كتابه «فنّ الحياة» من التسـاؤل الآتي: ما الخطأ في السـعادة؟ قد يربك

١- جهينة قبلي وريم وبن سديرة: الحداثة السائلة عند زيغمونت باومان، ص٥٨.

٢- للتوسع في هذا الموضوع، يُنظر: زيجمونت باومان: فن الحياة، (على ظهر الغلاف).

السؤال في المقدّمة القارئ. يُقصد بذلك السؤال الإرباك؛ ليحثّ القارئ على التوقّف والتفكير. ليتوقّف على ماذا؟ في سعينا للسعادة، والتي - كما يوافق معظم القرّاء - تحتلّ حيّزًا مهمًّا في تفكيرنا وحياتنا.

لماذا يعتمد السؤال الإرباك؟ لأنّه عند السؤال «ما الخطأ بالسعادة؟»، فهذا يشبه السؤال عن حرارة الجليد أو الرائحة الكريهة في زهرةٍ ما. لا يمكن مقارنة الجليد بالحرارة، أو الزهرة بالنتانة، تفترض هذه الأسئلة جدوى التعايش المتعذّر (حيث توجد الحرارة لا يوجد الثلج).

كيف يمكن لشيء أنْ يكون خاطئًا بخصوص السعادة؟ أليست السعادة مرادفًا لغياب الخطأ؟ أليست عن استحالة وجوده؟ أليست عن استحالة كلّ الأخطاء؟!

يعتبر (باومان) أنّ حياتنا، سواء عرفناها أم لا، وسواءً استمتعنا بالأخبار أو تفجّعنا عليها، هي أعمال فنّيّة. لنحيا حياتنا كما يحتّم علينا فنّ العيش، يجب علينا، مثل أيّ فنّان، أنْ نضع تحدّيات لأنفسنا، وهي بذاتها (في لحظة تصميمها تحت أي نسبة) يصعب مواجهتها بصراحة. وعلينا أنْ نختار أهدافًا (في لحظة اختيارها عند أي نسبة) تكون أبعد من قدرتنا على الوصول، ومعايير التميّز، والتي تبدو بشكل مزعج باقية بعناد فوق قدرتنا (كما وصلنا لها أساسًا تحت أي نسبة). علينا محاولة المستحيل. ويمكننا أنْ نأمل، دون دعم من مراجع موثوقة ومفضّلة (ناهيك عن المؤكّدة)، والتي مع جهد كبير وعظيم، يمكننا أنْ نصل إلى تلك المعايير والأهداف، وبالتالي أنْ نواجه التحدّي.

لكنّ السؤال الذي لم يحظَ – في هذا السياق - بكبير اهتمام وعناية من قِبَل (باومان)، هو الآتي: ما هي الميكانيزمات التي يمكن وضعها من أجل تحقيق التحوّل الإيتيقي من الحداثة السائلة، التي تمثّل نظرة تشاؤميّة إلى حداثة تفاؤليّة إنسانية متوافقة مع الطبيعة البشرية، وتمكن من ردّ الاعتبار للإنسان بوصفه غاية في ذاته، ولقيمته الخُلُقية، ومكانته الاجتماعية، ليشغل موقعه الطبيعي فردًا فعّالاً في مجتمعه ومساهما في بناء معالم حضارته وتطويرها؟

ويعتقد (باومان) أنّ الشكّ هو العادة الطبيعية للحياة البشرية، رغم أنّ الأمل في الهروب من الشكّ هو محرّك السعي البشري. إنّ الهروب من الشكّ هو مكوّن أساس، حتى وإنْ افترضنا ذلك تكتيكيًّا لكلّ الصورة المكوّنة للسعادة. لهذا تبدو السعادة الأصلية والصحيحة والكاملة

دائمًا مبتعدة لمسافة معيّنة، مثل الأفق الذي يبتعد كلّما اقتربت منه.

في أول تطبيقات السيولة، وبعد التمهيد الطويل في «الحداثة السائلة»، يخرج لنا (باومان) بكتابه الثاني «الحياة السائلة»، ليخبرنا -باختصار- أنّ ما يعيشه العالم اليوم هو حياة سائلة تمثّل سلسلة من البدايات الجديد، في إشارة لما أصبحت عليه حياتنا من استهلاك لا ينقطع.

فالحياة السائلة - وفق (باومان) - حياة استهلاكية تجعل من العالم، بكل أحيائه وجماداته، موضوعات للاستهلاك، تفقد نفعها بمجرّد استخدامها، فتفقد سحرها وجاذبيّتها وإغراءها، وتتشكّل معايير تقويم الأفراد وفق قدرتهم على الاستهلاك، أي أنّك كلّما استهلكت ارتفعت قِيَمتك. وهكذا، ففي عالم حديث سائل، فإنّ الفرد يقبع تحت الحصار من قِبَل كلّ الأحوال التي تمنّيه بالحُريّة، ولكنّها -في الحقيقة- تحاصره بخَلْق الاحتياج.

ولعلّ أخوف ما يواجهه الإنسان في حياةٍ كتلك، هو احتمال الفشل من اللحاق بالمستجدّات المتسارعة. فالحياة، في مجتمع كهذا، أشبه بلعبة الكراسي الموسيقية؛ حيث يكمن الرهان الحقيقي في النجاة من الاستبعاد المؤقّت، فالفرد أضحى تحت الحصار الذي يبسطه الاستهلاك، وأصبح التوجّس الحقيقي هو أن يغفل المرء اللحظة المناسبة التي ينبغي عليه فيها تبديل أشيائه/ علاقاته بعلامة تجارية جديدة غير التي معه.

في عالم السيولة – حسب (باومان) - تتغيّر القِيَم والهُويّات، وتسيل الحدود السياسيّة، وتفقد الحواجز التقليديّة تأثيرها وأهميّتها بسبب حركة رأس المال والهجرة المستمرّة من أجل البحث عن الربح السريع، وهو ما يؤثّر -بدوره- على ثبات القِيَم وصلابة الأخلاق التي قد تواجه منفعة الكسب والاستهلاك، فتكون معرَّضة للهزيمة والتطويع من أجل ألا تتوقّف عجلة الاستعمال السريع. وبذلك يعتبر (باومان) أنّ زمن الحداثة هو زمن أفول القِيَم.

وإذا كان (باومان) قد صاغ مفهوم الحداثة السائلة والسيولة، ثمّ عمد إلى تطبيقه على مجموعة من النماذج، كالحياة، والأخلاق، والثقافة، والحبّ، والخوف، والمراقبة، والشرّ، فإنّه لم يعمل على تجريبه وإسقاطه على عناصر أخرى، نراها أكثر ثباتًا وأقلّ عرضة للتغير والسيولة. ومن هنا نطرح التساؤل الآتي: لماذا لم يطبّق (باومان) مفهوم الحداثة السائلة، وحالة السيولة على عناصر أخرى، تظهر أكثر رسوخًا وثباتًا، مثل الدين، والهُويّة، والتراث، والعادات، والتقاليد المتوارثة

عبر قرون، وغيرها؟ وإلى أيّ حدّ من الممكن تطبيق مفهوم السيولة على العناصر المذكورة؟

يرى (باومان) أنّ المركز اليوم تحوّل نحو «الاستهلاك بمعناه العميق للمكان والقِيَم والأشياء والعلاقات في ظلّ العَولَمة»، وأصبح التحديث المستمرّ لكلّ شيء، دون وجود أي غاية من هذا التحديث، هو الغرض في حدّ ذاته، فإنّ ما تتميّز به طريقة الحياة الحديثة عن أنماط الحياة السابقة السائدة، يكمن في «التحديث الوسواسيّ القهريّ الإدمانيّ».

يتحدّث (باومان) في كتابه «الأزمنة السائلة» عن عدم ثبات القِيَم، فيقول: «إنّ الأرض التي يُفترض أنْ يقف عليه مستقبلنا، هي أرض رخوة بكلّ تأكيد... فقد تحوّلت فكرة 'التقدّم' إلى واقع مرير وجبرية متطرّفة، بعدما كانت أبرز تجلّيات التفاؤل والأمل الكبير بتحقيق السعادة الدائمة للجميع، فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشّر بالراحة ولا السكينة، بل ينذر بالشدّة والمشقّة الدائمتين، ويمنع أيّة لحظة للراحة»[١].

وفي السياق نفسه، يضيف (باومان): «ففي هذا العالم لم تبق صخور صلبة يمكن للأفراد المناضلين أن يبنوا عليها آمال الخلاص... فالروابط الإنسانيّة فضفاضة تمامًا. ولهذا السبب نفسه، لا يمكن الوثوق بها بتاتًا، كما أنّ التكافل يصعب ممارسته؛ لأنّ فوائده -بل وفضائله- يصعب فهمها... إنّ الفردية الجديدة، وانهيار الروابط الإنسانيّة، وأفول التكافل، كلّ ذلك نُقش على أحد وجهي العملة، وأما الوجه الآخر فيُظهر المعالم الضبابية «للعَولَمة السلبية»[٢].

إنّ مصطلح السيولة ما هو إلا توصيف يتوافق مع الوقت الراهن، وقد استخدمها (باومان) بوصفها «استعارة للمرحلة الحالية للحداثة؛ لأنّ السوائل تبرز الهشاشة والقابلية للانكسار»[٣].

فمواصفات المواد السائلة أنّها تتغيّر باستمرار، ولا تحافظ على سمة التماسك بين مكوّناتها في حالة السكون، فهي تبقى في حالة التغيير المستمرّ. يقول (باومان): «إنّها تجري، وتنسكب، وتنساب، وتتناثر، وتتسرّب، وترذ، وتتقطّر، وتنزّ، وتسيل، فلا يسهل إيقافها، كما هي الحال مع

١- زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللا يقين)، ص٣٤.
٢- زيجمونت باومان: الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللا يقين)، ص٤٦.
٣- زيجمونت باومان وجوديث بتلر وسكوت لاش وآخرون، مستقبل النظرية الاجتماعية، ص٤٩.

المواد الصلبة»[١]، ويعني ذلك أنّ التغيير المستمرّ ينذر بأفول أسطورة الثبات، بحيث يصبح كلّ شيء مرنًا وذا خفّة مذهلة، بحيث يسهل تغييره بسرعة مذهلة. وبهذا، فالحديث عن السيولة أشبه ما يكون بالحديث عن «لقطة فوتوغرافية تحتاج إلى تاريخ أسفل الصورة»[٢].

فهذا التغيير سيقود إنسان ما بعد الحداثة نحو مزيد من السرعة والسيولة المستمرّة، وخاصة مع التقدّم التكنولوجي الهائل، وتنامي سرعة السوق وظهور الكوخ الإلكتروني، ما يجعل الكينونة البشرية كينونة استهلاكيّة تتعاطى مع الإنسان والأشياء تعاطيًا سلعيًّا مقرونًا بتاريخ نهاية الصلاحية ومعلّقًا عليه «حتى شعار آخر». يقول (باومان): «إنّ الحياة المتمركزة حول الاستهلاك لا بدّ من أن تستغني عن القواعد والضوابط، إنّها تهتدي بهدي الإغراء، والرغبات المتزايدة والأماني المتقلّبة على الدوام، فلم تعد تهتدي بهدي الضبط الذي تحكمه القواعد، وما من نموذج مثاليّ محدّد»[٣]. وهذا يعني أنّ التغيير صار هو الثبات الوحيد في المجتمعات الاستهلاكية اليوم.

رابعًا: بنية الأخلاق عند (فوكو) (مفهوم الذات وموقعها/ الأخلاق والسلطة/ الأخلاق والحُريّة):

خصّص (ميشيل فوكو)، قبل وفاته بقليل، لمسألة الأخلاق كتابين توّج بهما عمله الفلسفي[٤]. لكن كم سنفاجأ عندما نعرف أنّ هذا الموضوع – موضوع الأخلاق والقِيَم - لم يكن غائبًا بالمرّة في دراساته الفلسفية – التاريخية.

هناك اختلاف لدى الباحثين والمختصّين في فلسفة (فوكو)، في تقدير موقف (فوكو) من الذات؛ وذلك راجع إلى أنّ الفيلسوف قدّم في المرحلة الأولى من مسيرته الفلسفية ذاتًا خاضعة

١- زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص٤٢.
٢- زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص٤٢.
٣- زيجمونت باومان: الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ص١٣١.
٤- نعني بهما:
- Histoire de la sexualité (L'usage des plaisirs), Tome 2.
- Histoire de la sexualité (Souci de soi), Tome 3.

ومُهيمَنًا عليها، وموضوعًا لشتّى الأســاليب والتقنيّات، وأبرزها التقنيّات المعتمدة في السجن، وأجلاها عبارة موت الإنســان، التي سطرها في كتابه الكلمات والأشياء، أما في المقاربة الثانية، فيظهر ذاتًا سيّدة وحُرّة في درسه «تأويل الذات» الذي قدّمه (فوكو) سنة ١٩٨٢، وهو درس متعلّق بالذات والحقيقة، وكان موضوعه نظامَ المتع في المرحلة اليونانية والرومانية، ويظهر هذا الدرس بصورة معيّنة في الجزء الثالث من «تاريخ الجنسانية: الاهتمام بالذات».

وقد قدّم (فوكو) تفسيراً لهذا التعارض من جهة ما يتصل بمساره الفلسفي، ومن جهة مفهومه للذات؛ حيث رأى في المقاربتين المتعارضتين ما يشير إلى طريقتين متعاكستين في تحليل السؤال ذاته، وهو: كيف تتشكّل تجربة ثقافية من خلال ترابط العلاقة ما بين الذات والآخرين؟ يعني ذلك الإقرار بوحدة الإشكاليّة وبالاختلاف في المنهج المُعبَّر عنه باســم الأركيولوجيا أو الوصف أولاً، والجنيالوجيا أو البحث التاريخي ثانيًا، كما يعني دفاع الفيلســوف عن وحدة فلســفته، رغم إقراره باختلاف أســلوبه في المعالجة؛ وذلك بالنظر إلى اختلاف طبيعة الموضوع، فدراســة المجنون، والمريض، والمجرم، تقتضي إظهار العمليّات التي يســمّيها التوضيــع objectivation، في حين أنّ الجنس يقتضي إظهار عمليّات التذويت subjectivation وإبرازها، تشــكّل عمليّات التذويت والتوضيع إجابة للإشــكالية المركزية عن كيفية تشكّل تجربة ثقافية من خلال مجالات المعرفة، وأنماط المعايير وأشكال الذاتية[١].

أما مــن جهة مفهومه للذات، فإنّ (فوكو) قد دافع عن معنــى خاص للذات، قام على التمييز بين الذات بوصفها جوهرًا يتميّز بالسيادة والكونية، وبين الذات بوصفها شكلاً متغيّرًا ومتحوّلاً؛ حيث يقول (فوكو): «يجب أنْ نميّز -بداية- بأنّه ليس هناك ذات سيّدة ومؤسّسة، لها شكل كوني يمكن أنْ نجده في كل مكان، إنّني أشكّ في وجود مثل هذا التصوّر، وإنّني أناهضه وأرى العكس من ذلك: إنّ الذات تتشكّل وتتكوّن من خلال ممارسات الإخضاع والتحرّر والحُريّة، مثلما هو الحال قديمًا، وذلك انطلاقًا من عدد معيّن من القواعد والأســاليب والاتفاقات التي نجدها في الوسط الثقافي»[٢].

1- Michel Foucault: Histoire de la sexualité (L'usage des plaisirs), Tome 2, p 10.

2- Michel Foucault: dits et écrits (19541988-), vol 4, p 733.

ويؤكّـد (فوكو) في كثير من نصوصه أنّ فكره يمثّل نقدًا جذريًّا للذات، كما فهمتها فلسـفات الذات، بدءًا بـ (ديكارت) وصولاً إلى (سـارتر)، أي تلك التي حدّدت وعي الذات بذاتها، ومن ثَمَّ معرفتها بذاتها على أنّها وعي أنوي يتموضع خارج التاريخ، ومتشكّل ذاتيًّا وحُرٌّ بإطلاق، لكنّ (فوكو) -وخلافًا لهذه الفلسفات- يحلّل تشـكّل الذات ضمن مجرى التاريخ، فهو يتحدّث عن الذات بوصفها موضوعًا يتشكّل تاريخيًّا[١].

وتحـدّث (فوكو) في أعماله الأخيرة عن علاقات الذات بالحقيقة والسـلطة، وهذه العلاقات أعطت لأعماله وجهة جديدة؛ ذلك أنّها طرحت إشكالية عن فلسفته كلّها، ألا وهي منزلة الذات في الفلسفة المناهضة للذات، يقول (فوكو): «لا تتمثّل مشكلتي في تحديد اللحظة التي ظهرت فيهـا الذات، ولكنّهـا تتمثّل في مجمل العمليّـات، التي من خلالها توجد الـذات مع مختلف المشاكل والعراقيل أو العقبات، ومن خلال الأشكال التي لم تنته بعد، يتعلّق الأمر -إذن- بإدخال مشكلة الذات التي تركتها جانبًا في أعمالي الأُولى، ومحاولة تتبّع المسالك والصعوبات خلال تاريخهـا»[٢]، ينجم عن هذا أنّ الذات التي يتحدّث عنها (فوكو) ليسـت جوهرًا ثابتًا، وإنما هي شكل تاريخي وثقافي محدّد. ولذلك قام بدراسة الأشكال التاريخيّة للذات[٣].

لم يكن ما قام به (فوكو) من تاريخ للجنس تاريخًا للسلوك (أي أنّ الأمر لا يتعلّق بالتساؤل عن كيفية ممارسة الناس للجنس)، ولا تاريخًا للتمثّلات (لا يتعلق بالتساؤل عن كيف حدث تفكير الجنس من قبل الناس)، بل تاريخًا لكيفيّات التجربة المشكّلة للذات الخُلُقية[٤].

إنّ دراسـة الواقع ورصد تجاربه، أعطى لفلسـفة (فوكو) نوعًا من الخصوصية؛ إذ لم يقبل أنْ يبقى في صومعة الفيلسوف بعيدًا عن واقع الحياة، وما تحمله من أسرار، بل نجد أنّ كتاباته مزيج من الفلسفة والتاريخ وعلم النفس، وهو ما يترجم رصده لتجارب تاريخية عدّة، نذكر منها: تجربة

١- خالد البحري: استطيقا الذات لدى فوكو، ص٩ - ١٠.

2- Michel Foucault: dits et écrits (19541988-), vol 4, p705.

٣- شاكر مخلوف: الفكر الأخلاقي الفرنسي الما بعد حداثي (ميشيل فوكو نموذجا)، ص٥٠.

٤- فريدريك غرو: ميشال فوكو، ص ١٢٥.

الجنس التي رصدها تاريخيًّا، ومبرزًا كيف لعبت السلطة الحيوية دورها الحداثي في إدراجها باعتبارها مشكلة خُلُقية.

جرى اعتبار الأخلاق قديمًا ممارسةً واعية للذات الحُرّة، وطبقًا لهذا الأساس والهدف في الوقت نفسه، لا يمكن الاهتمام بالذات دون معرفة حقيقتها. ومن هنا، علاقتها بالحقيقة والسلطة في الوقت ذاته؛ إذ يتطلّب ذلك التحكّم في الذات، وفي رغباتها[١].

إنّ علاقات السلطة تخترق العلاقات الإنسانية مهما كانت، سواء تعلّق الأمر بالمحادثة أم ممارسة الجنس، فالسلطة حاضرة في نسيج العلاقات الإنسانية، وتعمل دائمًا على قيادة الآخرين، وإذا كانت علاقات السلطة تتميّز بطابعها المتحرّك والمتغيّر بما أنّها تنتشر في الجسم الاجتماعي، فإنّ أهمّ ما يميّزها على الإطلاق هو الحُريّة، فلا وجود لعلاقات السلطة في غياب الحُريّة؛ إذ إنّ الحُريّة شرط لممارسة السلطة، وممارسة السلطة تقتضي حدًّا أدنى من الحُريّة، وإلا أصبحت السلطة غير ممكنة، وهذا يعني أنّ علاقات السلطة تقتضي دائمًا المقاومة، يقول (فوكو): «إذا كانت هناك علاقات سلطة في الحقل الاجتماعي، فلأن هناك حُريّة في كلّ مكان»[٢].

وفي نظر (فوكو)، فإنّ حالات الهيمنة والسيطرة تحدث لمّا تكون علاقات السلطة راسخة؛ حيث يكون هامش الحُريّة محدودًا للغاية. لذا، يرى أنّ إحدى المَهام الأساس للفلسفة، هي المَهمَّة النقديّة المتمثّلة في نقد أشكال الهيمنة، وأنّ هذه المَهمّة مشتّقة من الحكمة السقراطية: «اعرف نفسك»، التي عُرّفت على نحو: أسّس نفسك بحُريّة، وذلك من خلال التحكّم في نفسك[٣]. ومن هنا، كان البحث في هذا المجال يعرف بما سمّاه (فوكو): «أخلاق الوجود éthique de l'existence»، أي هذا الجهد الذي يؤكّد على الحُريّة، ويعطي الحياة شكلاً يجري الاعتراف به من قبل الآخرين، وتتمثّل هذه الأخلاق في تلك الإرادة التي تمكن الفرد من أنْ يحوّل حياته إلى أثر فنّي، وإذا كانت بعض النظريّات الحديثة لا ترى في السلطة إلا وجهها القمعي، فإنّ

١- الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو، ص ٢٩٩.

٢- دروس ميشيل فوكو (١٩٧٠ - ١٩٨٢)، ص٧٣.

٣- دروس ميشيل فوكو (١٩٧٠ - ١٩٨٢)، ص٩١.

(فوكو) يرى أنّها تتميّز بالقمع والإنتاج معًا، فقد بيّن في تحليلاته لأشكال السلطة هذا الجانب الإيجابيّ، كما ناقش القمع في كتاباته المختلفة، ولقد طرح في هذه الفرضيّة مجموعة من الأسئلة: هل آليّة السلطة، خاصّة في المجتمع الحديث، ذات طبيعة قمعية؟ هل الرقابة والحظر هي الأشكال التي تمارس بها السلطة في كلّ مجتمع بوجه عام وفي المجتمع الغربي بوجه خاصّ؟ هل الخطاب النقدي الذي يوجّه إلى القمع يختلف عن السلطة أم أنّه يشكّل جزءًا منها؟

لا تذهب هذه الأسئلة إلى القول إنّ السلطة ليست قمعية، وإنّما إلى إظهار جانبها الآخر وهو الجانب الانضباطي، يقول (فوكو): «يجب التوقّف عن الاستمرار في وصف مفاعيل السلطة بعبارات سلبية مثل: إنّ السلطة تستبعد، وتقمع، وتكبت، وتراقب، وتجرّد، وتقنع، وتخفي. في الوقع إنّ السلطة تنتج، وتتّبع الواقع الحقيقي»[١].

يؤكّد (فوكو) على دور السلطة في الإنتاج والتشكيل في مجال المعرفة والفرد والمجتمع، وتعتبر السلطة الانضباطية مثالاً نموذجيًّا لهذا الدور، الذي تنتج فيه مختلف عمليّات الفردية Individualisation في الجسد الاجتماعي، ومنها بوجه خاصّ إنتاج الفرد، والمعرفة عن الفرد[٢].

لا يهدف تحليل (فوكو) للسلطة إلى تشكيل نظريّة عن السلطة بقدر ما يمثّل وسيلة لتحليل الطريقة التي تشكّلت بها الذات الغربية بوصفها موضوعً معرفة لذاتها، فالموضوع يتعلّق بالذات وممارساتها، رغم أن هذا الموضوع يبقى محصورًا في السلطة التي يتخلص منها (فوكو) تدريجيًّا، وهو لا يفعل ذلك لينفيها، وإنّما لإعادة صياغتها من جديد حسب تصوّر آخر؛ حيث يحلّل طريقة ممارسة السلطة التي تطبع آثارها في السكان، والجسد، والجنسانيّة[٣].

إذا كانت السلطة هي جمل متداخلة من علاقات القوى، وهي علاقات معقولة، تستعمل استعارة لتبيان مواقع الأفراد مقارنة ببعضهم، فإنّ الذات تبدو قناعًا مصطنعًا لهذه السلطة، لكن كيف تسلك الذات بمعزل عن السلطة والمعرفة؟ في هذا السؤال يتموضع سؤال الأخلاق في فلسفة (فوكو)؛ حيث

١- ميشيل فوكو: المراقبة والمعاقبة (ولادة السجن)، ص٢٠٤.
٢- فرانسوا إيوالد: ميشيل فوكو (الاهتمام بالحقيقة)، ص٢٢.
٣- فرانسوا إيوالد: ميشيل فوكو (الاهتمام بالحقيقة)، ص٢٢.

كان كتـاب «تاريخ الجنسـانية» محاولة للإجابة عـن ذلك، من خلال تبيان السـلوك، الذي يجب أنْ تسـلكه الذات أمام أجهزة السلطة القمعية؛ حيث ينتقل «(فوكو) من موت الذات إلى حقّها في الحياة ثُمَّ التأسيس لـ إيتيقا تعمل جاهدة على تحرير الذات من كلّ العلاقات السلطة وترسّباتها، بحيث تصبح الأخلاق حُريّة فردية تعمل دون تصوّر لحدود الأوامر الـ (ينبغي) التي تؤسّس القواعد الخُلُقية»[١].

خامسًـا: الأخلاق عند (فوكو) بوصفها علمَ جمالٍ (اسـتطيقا السـلوك وآليّات الوجود الجميل):

اعتمـد (فوكو) في مشروعه الخُلُقي على الفصـل والتمييز بين مفهوم الأخلاق (la morale) ومفهوم الإيتيقا (l'éthique). فالأخلاق في المعنى العام، مجموع القِيَم، وقواعد الفعل، والأوامر والنواهي، التي تكون مفروضة على الأفراد والمجموعات عن طريق أجهزة آمرة مختلفة، كالأسرة والمؤسّسات التربوية والكنائس... وهذه الأخلاق تترتّب عنها «خُلُقية السلوكيّات»، أي ضرب من التنوّع الفرديّ الواعي إلى حدّ ما بالنسبة إلى منظومة أوامر، أو تعليمات المدوّنة الخُلُقية[٢]. في المقابل، تخصّ الإيتيقا الكيفية التي بمقتضاها كلّ واحد يشكّل ذاته نفسها بوصفها موضوعًا خُلُقيًّا؛ إذ ثَمَّة كيفيّات مختلفة لأنْ يتصرّف المرء خُلُقيًّا، بمعنى كيفيّات مختلفة بالنسبة إلى الفرد الفاعل لأنْ يفعل، لا من حيث هو فاعل فقط، وإنّما من حيث هو موضوع خُلُقي لهذا الفعل[٣].

وفلسـفة الأخلاق الإنسـانية هي العلم التطبيقي لـ «فنّ العيش» القائم على (علم الإنسـان) النظري، الذي يعتبر من أهمّ الفنون التي يمارسـها الإنسـان، وتضاهي في أهميّتها باقي الفنون؛ إذ إنه أكثر تعقيدًا، فهو لا يشمل مجالاً بعينه، وإنما يقوم فنّ العيش على فكرة ما يجب أنْ يكون عليه الإنسان، فهو الفنّان وموضوع الفنّ[٤].

١- نورة بوحناش: الأخلاق والحداثة، ص١٧٠ - ١٧١.
٢- خالد البحري: استطيقا الذات لدى فوكو، ص١١.
٣- خالد البحري: استطيقا الذات لدى فوكو، ص١٢.
٤- إيريك فروم: الإنسان من أجل ذاته، ص٥٢.

ويعتبر الهدف الأساس لتناول (فوكو) للذات هو قيام ذات قادرة على التخلّص من كلّ ممارسات السلطة، المتغلغلة في الحياة اليومية للأفراد؛ بحيث لم يعد بالإمكان تحديدها، فأصبح لزامًا أنْ نعرف كيف نعتني بذواتنا، لتتشكّل «الذات الإتيقية» من خلال جملة من التقنيّات.

هيّأ (فوكو) لمولد فرد قادر على الإبداع باستمرار، وفي بحثه عن سبل فنّ العيش، وانبثاق الوجود، نجده قد استوقفته الحياة الخُلُقية لدى الثقافة اليونانية الرومانية، خاصة فيما يتعلّق بالجنسانية، ولعلّ مردّ ذلك إلى منهجه الأركيولوجي، وطريقته التي تقوم على أساس التنقيب، وعلى النقد الجنيالوجي الذي يرسم المعارف والحقائق ويتعهّدها بالتأويل والتقويم.

إن ما يميّز الثقافة القديمة في تجربة الجنسانية هو تجسيد معالم جمالية الوجود إلى حدّ بعيد، فقد احترمت الحياة الجنسية لأفرادها وحُريّتهم دون إخضاعهم لأيّة سلطة اجتماعية كانت أو سياسية، فمبدأ المنع لا يكون من منطلق القانون، بقدر ما هو بغرض تحقيق وجود جميل. لذلك، «لا نجد تقنينًا للسلوكيّات من شأنه تنظيم الجنس أو التمييز بين ما هو مسموح وما هو محظور. يتعلّق الأمر فعليًّا بالنسبة للأخلاق القديمة بأوامر موجّهة إلى أناس أحرار، مع حضور ميكانيزمات من التسامح. ولا يأخذ مطلب الضوابط شكل قانون للممنوعات، وإنّما الشكل المُبسَّط الذي يحمل ميزة خاصّة»[1].

ومن أجل أنْ يتحكّم الفرد في حياته الجنسية يتعيّن عليه اعتماد «حمية للمتع الجنسية»، وأخرى للإنجاب، والتي تكون بوضع برنامج محدّد للأغذية التي يجب تناولها ومقاديرها، وما يجب الامتناع عن تناوله، إلى جانب ممارسة الرياضة، وتحديد أفضل الأوقات للممارسة الجنسية. ورغم ارتباط تحقيق المتعة بكثير من الصرامة، ليست الطبية فقط بل الشخصية بالدرجة الأولى، لكنّ «المرء لا يبلغ المتعة إلا إذا بالغ في الاهتمام بذاته، وما يقترن بها من مستلزمات»[2].

ومن مظاهر جماليّات الوجود عند اليونان اهتمامهم بوضع مخطّط لاحترام الوقت، فكلّ أمر في الحياة له وقته الذي يناسبه، ولا يجب خلط الأمور؛ حيث يؤكّد (فوكو) أنّ عبارة «عندما يحين

١- فريدريك غرو: ميشال فوكو، ص١٢٨.

٢- جيجيكة ابراهيمي: حفريات الإكراه في الفلسفة (ميشال فوكو)، ص١٠٥.

الوقت تحتلّ دومًا مكانة مُهمَّة جدًّا عند اليونان، لا بوصفها مشكلة خُلُقية فحسب، ولكن أيضًا بوصفها مسألة علم وتقنية»[١].

إنّ الأخلاق القديمة -حسب (فوكو)- كانت جزءًا من نمط الحياة الذي تحدّده منزلة الفرد الاجتماعية وغاياتها. فسمو المكانة واتساع السيطرة على الآخرين مرتبط بالقدرة على التحكّم الصارم في الرغبات[٢].

كما أنّ ما يميّز ثقافة اليونان، من خلال أخلاقها النظرية، أنّها دعت إلى أنْ يكون الإنسان سيّد نفسه، وسيّد اختياراته مسيطرًا على رغباته وأنْ يحقّق معادلة الفضيلة، وهي الوسط بين رذيلتين، فلا إفراط ولا تفريط؛ أي الاعتدال. ولكن هل دراسة (فوكو) لأخلاق اليونان، وإعجابه بهذه الثقافة، يعني أنّه يريد أن يجعلها نموذجًا لأخلاق ما بعد الحداثة؟

يدحض (الزواوي بغورة) هذا الاحتمال، ويؤكّد رفض (فوكو) «تحويل الأخلاق اليونانية إلى نموذج خُلُقي. وليس هناك حلّ صالح لكلّ زمان ومكان»[٣]. وقد اعتبر (فوكو) أنّ مرجعية الضبط والمنع الحداثية هي مرجعية إيديولوجية بحتة، تطبّقها سلطة المؤسّسات وفق «أجندة» محدّدة، خالية من أيّ حرص على ذات الفرد، وما يُعلِي بُعدَه الجمالي؛ بدليل أنّ الحياة الجنسية عند اليونان لم تخلو من التجاوزات، فقد شملت مختلف أنواع الشذوذ الجنسي.

وإذا ما عدنا إلى واقع النموذج الخُلُقي الحداثي القائم على القمع والمنع والرقابة، نجد أنّه جرى التمرّد على هكذا نمط، وكانت بدايته بالانتفاضة الطالبية سنة ١٩٦٨، التي أطلق عليها اسم «الثورة الجنسية»؛ نظرًا لما حملته من دعوات إلى الحرية الجنسية، بوصفها إشارة إلى كسر حاجز السلطة بالتمرّد على الوضع الاجتماعيّ المبني على السيطرة، والذي يخدم مصالح الأنظمة بالدرجة الأولى، التي تسعى بكلّ السبل إلى ضمان استقرارها. وما تشريع الحكومات الغربية المعاصرة لقوانين تبيح كلّ أشكال الحُريّة الجنسية، وتأمين الرفاهية المطلقة، إلا تطبيق

1- Michel Foucault: Histoire de la sexualité (L'usage des plaisirs), Tome 2, p 80.

٢- حسين موسى: ميشيل فوكو (الفرد والمجتمع)، ص٨٤.

٣- الزواوي بغورة: الفكر الأخلاقي لما بعد الحداثة، ص١١٧.

للسياسة الضاغطة نفسها؛ لأنّ تعهد الناس بالتغذية الجيّدة، وإشباع رغباتهم الجنسية، وفتنتهم بالمُلهيات التقنية الفاخرة أدعى إلى صرفهم عن التمرّد على النظام الذي أولاهم تلك العناية»[١]؛ إذ يشير (ماركوز- Marcuse) إلى مفارقة، وهي أنّ ثورة الجنس التي أطلقها الانفلات القمعي أدّت إلى اختزال الجنس في ممارسات منصبّة على الأعضاء التناسلية، لتعكس بذلك عمليّات الإنتاج القائمة في العمل[٢].

وعلى الجانب الآخر، لا يمكن إخفاء أنّ المجتمعات المعاصرة تمكّنت من التقدّم أشواطًا كبيرة في الاهتمام بالجنسانية، من خلال التركيز أكثر على الجسد وأهمّية الاعتناء به، ويؤكّد ذلك، إقبال الأفراد على المنتجات الخاصّة بالعناية بالجسد، والتشجيع على الأكل الصحي وممارسة الرياضة، للحصول على جسم ممشوق وخالٍ من الأمراض، والتأكيد على الإصغاء إلى لغة الجسد، بإحياء علوم جديدة وتطويرها، كعلم اليوغا، والتنمية البشرية، وعلم الطاقة، وغيرها من العلوم التي تُعنى بتطوير الإنسان لذاته.

تعدّ اهتمامات (فوكو) بمختلف ممارسات الذات ربطًا بين الفنّ والحياة؛ حيث إنّ الكتابة ليست جزءًا من اهتمام الذات بذاتها، بل جزءًا من القِيَم الجمالية للذات الفردية، فالكتابة لها وظيفة خُلُقية، ولها بُعد جمالي، بما تضفيه على حياة كلّ فرد من أهمّية جمالية.

أنْ يجعل المرء من حياته تحفة فنّيّة، معناه ابتكار أشكال جديدة في العلاقة مع الذات من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الذات ليست متشكّلة بإطلاق، وإنّما هي تتشكّل باستمرار من خلال ممارساتها وعبرها، مضافًا إلى إرساء جماليّات العيش، وأسلوب حياة، ونمط وجود، فالثورة الفرنسية – مثلاً - ليست مشروعًا سياسيًّا فحسب، بل هي أسلوب ونمط وجود له جماليته في العلاقة مع الذات ومع الآخرين.

اصطلح (فوكو) على الممارسات السلوكية التي تقوم السلطة بمراقبتها بالأخلاق، والتي تمثّل الأوامر التحكّمية المفروضة على الذات، بينما اصطلح بالإيتيقا L'éthique على الوجود

١- تود سلون: حياة تالفة (أزمة النفس الحديثة)، ص١٨٠.
٢- تود سلون: حياة تالفة (أزمة النفس الحديثة)، ص١٨١.

الجميل، وتكون الأخلاق، من خلال هذا، شكلاً من الإبداع الجمالي، الذي تقوم الذات باختياره خارج سلطة السلطة، وبالنظر إلى فرضيّات موت الإنسان وموت التاريخ، فإنّ السلوك في حالة الممارسة الجمالية، لا يمتلك أيّة مرجعيّة[١]، وهنا يكون السؤال عن آليّات الوجود الجميل ملحًّا. فما هي آليّات الوجود الجميل؟ وكيف تسلك الذات المفردة بعيدًا عن كلّ تصوّرات القمع؟

هذا المسلك لن يكون إلا من خلال الاهتمام بالذات، والذي اصطُلِح عليه (فوكو) تقنيّات ممارسة الذات، وهذه التقنيات من خلالها يتكوّن ما يسميه «فن الوجود». ومع الترابط بين تقنيّات الممارسة القمعية للسلطة والأخلاق، تحلّ الفردية في قلب الممارسة السلوكية، وهنا أقرّ (فوكو) بسؤال الجسد وأحقيّته في الوجود، وقبل أن يستعيد (فوكو) جمالية الفرد المبدع، أو الفرد الذي يمكنه أن يتحقّق من خلال الإيتيقا، التي هي فن الوجود، فإنّه يطبق منهج التكوين الأركيولوجي والجنيالوجي على حفريّات تاريخ التقنيّات المعروفة في الحضارات التي كانت موضوع الذات[٢].

يقصد (فوكو) بمفهوم استطيقا الوجود أو فنّ العيش، الكيفيّة التي يتحوّل بها الفرد، وكيف يصبح ذاتًا خُلُقية، لا تهتمّ بالخضوع للقواعد والأوامر والمواعظ الخارجة عنها، بقدر ما تهتمّ بمنح وجودها بُعدًا جماليًّا. ويؤكّد (فوكو)، في هذا المستوى، على الطابع الفردي والذاتي للحقيقة؛ لأنّ الأخلاق التي يهتمّ بها في إطار التأريخ للحقيقة هي علاقة الفرد بذاته، بإعطاء الأهمّية الفُضلى، لما تتميّز به الذات لحظة الاهتمام بذاتها، فتتّخذ من ذاتها موضوعًا لتأمّلاتها، ومجالاً لتحقيق ذاتها بعيدًا عن الآخرين.

كانت الأبحاث التي قام بها (فوكو) تهدف إلى تحديد الشروط التي تؤدّي بالفرد إلى إخضاع ذاته إلى نمط معيّن من الذاتية، وفي هذا الشكل من الأخلاق تتّضح المسألة الذاتية بشكل جليّ؛ حيث تظهر بوصفها أساس للحقيقة عندما لا تخضع إلا لذاتها[٣]؛ حيث إنّ البُعد النقدي الذي استهلّ به (فوكو) دراساته المبكرة تراجع، ليحلّ محلّه البُعد الجمالي الاستطيقي.

١- نورة بوحناش: الأخلاق والحداثة، ص١٧٢ - ١٧٣.

٢- شاكر مخلوف: الفكر الأخلاقي الفرنسي المابعد حداثي (ميشيل فوكو نموذجا)، ص٥٠.

٣- حسين موسى: ميشيل فوكو (الفرد والمجتمع)، ص١١٩ - ١٢٠.

سادسًا: تحليل نقدي للقطيعة مع القِيَم الكلِّيَّة:

إنّ دراسة (فوكو) للأخلاق القديمة تعتبر محاولة جديدة من نوعها لدراسة الأخلاق وفهمها بشكل أعمق بعيدًا عن الطرح الحداثي، وبالرغم من اختلاف عصر اليونان وثقافتهم عن عصر ما بعد الحداثة، لكنهما يشتركان وفقًا لـ (فوكو) في بعض النواحي منها، أنّ اليونان جسّدوا الوجود وجماليّات العيش التي تتماشى مع الوضع الثقافي لتلك الحقبة، كما أنّها أسّست لأخلاق نظرية منفصلة عن الدين، وعن أيّ خطاب سلطوي، أخلاق نابعة من ذات الفرد وعنايته بنفسه.

لكنّ الأخلاق شهدت قفزات متأثّرة بالرأسمالية الاستهلاكية التي تغلغلت في عمق مجتمع مفرط في الفردانية، يعاني من الاستهلاك المتضخّم، بغرض تحقيق السعادة الأبدية، واحتواء القلق المسيطر على كيانه ومعاناته، في عدم القدرة على مقاومة جاذبية الإغراءات المحاطة به؛ إذ اجتهدت ما بعد الحداثة في قَولَبة منظومة خُلُقية جديدة محفوفة بالمخاطر، تقوم على مبدأ إحياء روح الرغبة، وتحقيق المتع على اختلافها بعيدًا عن أي عوائق.

ليتأسّس مجتمع ما بعد الحداثة على الحُريّة الشخصيّة للأفراد، متخلّصًا من كلّ أشكال التشدّد والقمع؛ اجتماعية كانت أم دينية أم خُلُقية. لقد جرى التمرّد على الأخلاق الصارمة، التي تقوّم المثُل العُليا والواجب والتضحية، فأضحت فضيلة تحقيق السعادة، وتقديس الذات، والرفاهية المادية، سِمَة هذا العصر الذي يؤمن بمبدأ عدم التعلّق والقول بالبدايات المتجدّدة.

وعلى الرغم من الانتقادات التي تُوجّه إلى أخلاق ما بعد الحداثة، التي تنادي بالنسبي والمتعدّد والمختلف وغياب القواعد، لكن استماتة خطاب ما بعد الحداثة في نسف مقوّمات الحداثة، وفتح الأفق أمام الـ «ما بعديّات» وصل صداه إلى الأخلاق، التي تعتبر حجرًا أساسًا في كيان الإنسان، الذي يعدّ الكائن الخُلُقي الوحيد على هذه البسيطة.

في «تاريخ الجنسانية»، يعتبر (فوكو) أنّ الدراسات التي قام بها هي دراسات تاريخية من جهة الحيّز الذي تعالجه والمراجع التي تتّخذها، ويقول في الوقت نفسه، هي ليست أعمال مؤرّخ[1]. ومع ذلك، فإنّه يعرّف نفسه بأنّه أستاذ تاريخ أنظمة الفكر. ومهما كانت الأسماء، فإنّ (فوكو) مؤرّخ

١- ميشيل فوكو: استعمال اللذات، ص١١.

يختلف عن باقـي المؤرّخين، فهو يقف بعيدًا عن مفاهيم التاريـخ، ومناهجه المتعارف عليها، والمنظّـرون الخُلُقيّون طالبوه بمعايير، وقواعد واضحة، لتبرير حملته المتواصلة ضدّ الأخلاق؛ حيث تساءلوا عن المبادئ التي استعملها في انتقائه للأحداث، وتطويعها لأغراضه النظرية[١].

يعتبر خصوم تيّار الـ «ما بعد الحداثة» الذي ينتمي إليه (فوكو)، أنّ هذا التيّار يتّخذ موقفًا عدميًّا من الأخلاق، وليس خصوم هذا التيّار فقط من يستعمل هذا الوصف، بل حتى المنتمون له، مثل (جياني غاتيمو-Gianteresio Vattimo) في كتابه «نهاية الحداثة».

وإذا كانـت ما بعد الحداثـة في عمومها تتّصل بميراث العدميّة، فإنّهـا تتصل أيضًا بالميراث الكانطي، وبتأويل معينّ للفلسـفة النقدية الكانطية. هذا ما نجده عند (فوكو). ومسـألة أخرى، هي علاقة الأخلاق بالجمال؛ حيث حاول (فوكو) الجمع بينهما من خلال فنّ الوجود، ولا شك في أنّ العلاقة بين الأخلاق والجمال هي علاقة ملتبسـة؛ ذلك أنّ موضوع الجمال هو موضوع تأمّل، في حين أنّ الخير هو موضوع تصرّف. ومن هنا، يرى بعض الباحثين أنّ المدخل المناسب لهذه العلاقة يكمن في التأكيد على أنّ خصوصية الجمال الخُلُقي يظهر في الفعل، بما هو إبداع ذاتي، وأنّ الفعل الجميل تعبير عن فعل قائم بذاته يترجم العناية والاستقامة، ويبلغ في التسامي، بحيث يتجلّى الخير في أفعاله، وبذلك نرى الجمال على الخير[٢].

يقـول (فوكو): «ينبغي أنْ أفترض أنّ خطابي هذا، لا يؤمّن لي طول البقاء، وإنّني إذ أتكلّم، لا أتحاشى موتي وإنّما أؤسّسـه، أو بالأحرى إنّني أزيـل كل داخلية في هذا الخارج الذي لا يبالي بحياتي، هذا الخارج الذي لا يُقِيم أيّ فرق بين حياتي وموتي»[٣]. لم يسـع (فوكو) إلا بناء صرح فلسـفي ضخم خالد، على غرار الفلاسفة الحداثيين، ففلسفته تعبير عن واقع يعيشه الغرب، كل ما حاول القيام به هو حفر هذا الواقع وتعريته.

وقد كان مشروع (فوكو) الفلسفي وفيًّا لتراث ثوريّ كامل في الفلسفة الغربية، افتتحه (كانط-

١- محمد المزوغي: فوكو والجنون الغربي، ص١٧.

٢- الزواوي بغورة: مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، ص٢٥٦.

٣- ميشيل فوكو: أركيولوجيا المعرفة، ص٢٧٤.

Kant)، وسار على هديه (كارل ماركس-Karl Marx) فيما بعد، فلم يكتفِ (فوكو) بالتنظير للعلوم الإنسـانية الحديثة، وبلورة المصطلحات الجديدة الفعّالة، وتجديد الأدوات الفكرية فحسـب، وإنّما تجاوز كل ذلك إلى التفكير بإمكانية تغيير الواقع عمليًّا، لكي يصبح أكثر حُريّة وأكثر عدالة، أو أقلّ ظلمًا. وهنا تأتي كتبه، مثل "تاريخ الجنون" أو "المراقبة والعقاب" أو "تاريخ الجنسانية"؛ حيـث حاول(فوكو) في هذه الكتب أن يعطي حقّ الكلام لمن هم محرومون منه تاريخيًّا، وأراد إعطاءه للمجنون الذي لا يسـتمع إليه أحد، إلا لكي يسخر منه، وللسجين، وللحركات النسويّة والتحـرّر الجنسيّ، لم يقل (فوكو) بأنّ المجنون أفضل من العاقل، أو أنّ السـجين بريء في كلّ الأحيان، أو أنّ الحُريّة الجنسيّة ليس لها حدود، لم يقل ذلك أبدًا في أيّ كتاب من كتبه، فكلّ ما أراد أن يفعله هو التعرية الأركيولوجية لأسـس الحضارة الغربية، والكشـف عن وجهها السالب الذي هو جزء لا يتجزّأ من وجهها الموجب، بمعنى تعرية أسـس الحضارة البرجوازية الليبرالية على مسـتوى الإنجازات والمؤسّسـات، وتبيان ضحاياها على أرضها بالـذات، فلكلّ حضارة ضحاياهـا، وهنا تبرز أهمية بحوثه. والشيء الذي لا يقبل به فكر (فوكو)، هو أن تعتبر الحضارة الغربيّـة ومقولاتها وأيديولوجيّاتها المرافقة، بمثابة القانـون الكوني والبديهيات التي لا تناقش، فليس هناك بديهيات لا تناقش بالنسبة لـ (فوكو)، وليس هناك خطاب بريء كل البراءة[1].

خاتمة

تأسيسًا على ما سبق، يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- ساهم التحوّل الذي عرفته المجتمعات نحو النزعة الفردية والثقافة الاستهلاكية، بفعل العَولَمة في الانتقال إلى ما سمّاه (باومان) «الحداثة السائلة»، والتي كان من تجلّياتها تحوّل الحياة الإنسانية إلى «حياة سائلة».
- أصبحـت القِيَم والعواطـف والروابط الإنسـانيّة تحكمها في زمـن الحداثة والحياة

1 – هاشم صالح: فيلسوف القاعة الثامنة، ص13.

السائلة منطق التسليع؛ حيث غدا التعامل مع هذه الروابط والعلاقات بمنطق النفعية والبراغماتية، القائم على أساس الإقبال والشراء، أو الإحجام والاستغناء، مثل أيّ سلعة أو منتج استهلاكي.

- أضحت السرعة وعدم الثبات السِمَة الأساس للحداثة السائلة، وكذلك للحياة السائلة، بما في ذلك الأخلاق والقِيَم، فأصبح العنصر الثابت الوحيد اليوم هو التغيّر وعدم الثبات.
- يَعتبر (باومان) الحداثة الصلبة والسائلة حالتين متلازمتين تحكمهما رابطة جدلية، فكل حالة ثابتة في نظره تحتاج إلى تفكيك وإسالة، ثمّ سرعان ما تحتاج لإعادة تثبيت، وهكذا دواليك.
- بعد إنتاج (باومان) مفهوم الحداثة السائلة، عمد إلى تطبيق مفهوم السيولة على مجموعة من النماذج، كالحياة، والأخلاق، والثقافة، والحب، والخوف، والمراقبة، والشرّ..
- تحكَّم السياق التاريخي والمجتمعي والإنساني الذي عاشه (باومان) في تحديد كثير من تصوّراته فيما يخصّ المسألة الخُلُقية، ومن ملامح هذا السياق، ظروف الحرب العالمية الثانية، والاحتلال النازي لبولونيا، وما يُسمّى «المحرقة» التي تعرّض لها اليهود في هذا البلد، مضافًا إلى الثورة التكنولوجية التي عرفها الغرب بعد الحرب.
- أسّس كل من (باومان) و(فوكو) نسبية الأخلاق في مرحلة ما بعد الحداثة: كلٌّ بطريقته وتصوّره الفلسفي الخاص، فالأوّل قعّد هذه النسبية من خلال وضع ما سمّاه «الحداثة السائلة»، أما الثاني، فأطّر هذه النسبية بما وضعه من مفاهيم ومداخل تحليلية تتعلّق بإعادة قراءة الذات، وعلاقة الأخلاق بالسلطة، وكذا بالحُرّيّة، وبوصفها (أي الأخلاق) مشروعًا جماليًّا ينمو بفعل الذات وتحدّيها للسلطة.
- إذا كان كل من (باومان) و(فوكو) قد اتفقا على نسبية الأخلاق خلال عصر ما بعد الحداثة، فإنّهما اختلفا في التفسير والتأويل، فالأول فسّر ذلك بمفهوم السيولة وسرعة التغيّر، الذي أدّى إلى غياب القوّة الفاعلة، أو ضعفها، وإلى (تعدّد مراكز) الفعل، أما

الثاني فقد رأى العكس؛ حيث أرجع ذلك إلى تحدّي الذات ومجابهتها لتغوّل السلطة وتحكّمها.

- تبـدو الغاية من المنهج الأركيولوجي والجنيالوجي عنـد (فوكو)، في أنّه القادر على كشـف مختلف التقنيّات، والممارسات السلوكيّة التي تخصّ الذات الإنسانية، وكذا الكشـف عن حقيقة الأخلاق المتمثّلة في السلوك الإنساني الذي تنتجه الذات، أو ما أطلق عليه تقنيّات الذات.
- طبّق (فوكو) المنهج الأركيولوجي، خاصّة في تاريخ الجنسـانية؛ حيث قام بدراسـة الأخلاق اليونانية، ثمّ إعادة صياغة هذه الأخلاق في سياق الانهمام بالذات.
- إنّ الفكر الحديث عاجز عن اقتراح أو تأسيس خُلُقيات؛ لكون هذا الفكر، وفي إطار اختفاء الإنسان بصفته محورًا أوّليًّا في العلوم الإنسانية، أصبح يسيطر ويستحوذ عليه اللا شـعور أو اللا مفكَّر فيـه؛ حيث أصبحت هذه الأمور هي التي تشـكّل مضامين أخلاق عصر الحداثة.
- إنّ الأخلاق عند (فوكو) ممارسات تخصّ الذات، وهي مواضيع رئيسة متعلّقة بالصحة والعلاقـة مع المـرأة والطفل، وكذا الحقيقـة والحُريّة. ولهذا، تطلّب الأمر دراسـتها باعتبارها ممارسـات تخصّ الذات؛ حيث تُعنى بسلوك الأفراد الفعليّ تجاه ذواتهم، من أجل جعلها قادرة على الفعل الخُلُقي. لذا، تُسمّى الأخلاق عند (فوكو) آليّات أو تقنيّات ممارسة الذات.
- دعـوة (فوكو) إلى ما يسـمّيه فنّ الوجود؛ إذ اعتبر أنّ الأخلاق هي الممارسـة الواعية للحُرّيّة، فتصبح بذلك الحياة تحفة فنّيّة، ولا يصبح الفنّ يهتم بالأشياء فقط، أو حكرًا على الفنّانين، بل يمكن للفرد من خلال حُرّيّته، والمساحة المتوفّرة له، أنْ يجعل حياته تحفة فنّيّة، وأنْ يجعل من حياته جديرة بأنْ تُعاش.
- إنّ الأخـلاق التي عالجهـا (فوكو) لها مرجعيّـة فكريّة؛ حيث الاعتـماد على الذات الغربية. ومن هنا، يمكن القول إنّها ليسـت أخلاقًا شـاملة، باعتبارها تخصّ مجتمعًا معيّنًا، ألا وهو المجتمع الغربي المتميّز بثقافته، وعاداته، وأنماط عيشه الخاصّة به.

المصادر والمراجع:

- جيجيكة إبراهيمي: حفريات الإكراه في الفلسفة (ميشال (فوكو))، مطبعة الدار العربية، بيروت، لا ط، ٢٠١١.
- فرانسوا إيوالد: ميشيل (فوكو) (الاهتمام بالحقيقة)، منشور ضمن مسارات فلسفية، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار، اللاذقية - سوريا، ط ١، ٢٠٠٤.
- زيجمونت (باومان) وجوديث بتلر وسكوت لاش سكوت وآخرون: مستقبل النظرية الاجتماعية، حوارات نقولا جين، ترجمة: يسرى عبد الحميد أرسلان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، لا ط، ٢٠١٤.
- زيجمونت (باومان): الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦.
- زيجمونت (باومان): الحياة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٦.
- زيجمونت (باومان): الأخلاق في عصر الحداثة، ترجمة سعد البازغي وبثينة الإبراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط ١، ٢٠١٦.
- زيجمونت (باومان): الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللا يقين)، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧.
- زيجمونت (باومان): الثقافة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٨.
- زيجمونت (باومان): فن الحياة، ترجمة: مازن سفيان، دار ترياق، الرياض، لا ط، ٢٠٢١.
- خالد البحري: استطيقا الذات لدى (فوكو)، مجلة دراسات فلسفية، العدد٣، نوفمبر ٢٠١٤.
- الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة (فوكو)، المجلس الأعلى للثقافة، لا م، لا ط، ٢٠٠٣.
- الزواوي بغورة: الفكر الخُلُقي لما بعد الحداثة، مجلة عالم الفكر، العدد٤١، الكويت، لا ط، ٢٠١٢.

- الزواوي بغورة، مدخل إلى فلسفة ميشيل (فوكو)، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- نورة بوحناش: الأخلاق والحداثة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، لا ط، ٢٠١٣.
- عفاف جدراوي وعبد الغاني وبوالسكك: الأخلاق كأفق لعالم الحداثة السائلة (زيجمونت (باومان) قارئا لإمانويل لفيناس)، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد٧، العدد٢، دجنبر ٢٠٢٢.
- عفاف جدراوي: الأخلاق كقِيَم استهلاكية عند زيجمونت (باومان)، مجلة أفكار وآفاق، المجلد١١، العدد١، السنة ٢٠٢٣.
- منال خوالدية ومصطفى كيحل: أخلاق ما بعد الحداثة في أفق الاهتمام بالذات عند ميشال (فوكو)، مجلة آفاق للعلوم، المجلد٧، العدد٤، ٢٠٢٢.
- دروس ميشيل (فوكو) (١٩٧٠ - ١٩٨٢): ترجمة: محمد ميلاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٨.
- تود سلون: حياة تالفة (أزمة النفس الحديثة)، ترجمة: عبد الله بن سعيد الشهري، عويدات للنشر والتوزيع، بيروت، لا ط، ٢٠٢١.
- هاشم صالح: فيلسوف القاعة الثامنة، مجلة الكرمل، فلسطين، العدد١٢، ١٩٨٤.
- معن الطائي: السرديات المضادة (بحث في طبيعة التحولات الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٤.
- محمد هادي طلعتي: الهيومانية (دراسة تحليلية نقدية للأسس والجذور)، ترجمة: حسن علي مطر، سلسلة مصطلحات معاصرة، العتبة العباسية المقدسة - المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف - العراق، ط١، ٢٠٢٢.
- فريدريك غرو: ميشال (فوكو)، ترجمة: محمد وطقة، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لا ط، ٢٠٠٨.
- إريك فروم: الإنسان من أجل ذاته، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، لا م، لا ط، ٢٠٠٧.
- ميشيل (فوكو): المراقبة والمعاقبة (ولادة السجن)، ترجمة: علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، لا ط، ١٩٩٠.

- ميشــيل (فوكو): استعمال اللذات، ترجمة: جورج أبي صالح، مراجعة: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لا ط، ١٩٩١.
- ميشــيل (فوكو): أركيولوجيا المعرفة، ترجمة: ســالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، لا ط، لا ت.
- جهينــة قبلي وريم بن ســديرة: الحداثة الســائلة عند زيغموند (باومان)، مذكــرة مقدمة لنيل شــهادة الماســتر في الفلســفة (مرقونة)، جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، السنة الجامعية: ٢٠١٨ - ٢٠١٩.
- ماري كليجز وباري بيرك وإريك دورســون وآخرون: ما بعد الحداثة دراسات في التحولات الاجتماعية والثقافية في الغرب، ترجمة: حارث محمد حسن وباسم علي خرسان، دار الروافد الثقافية، ناشرون، بيروت، لا ط، ٢٠١٨.
- شــاكر مخلوف: الفكر الخُلُقي الفرنسي الما بعد حداثي (مشــيل (فوكــو) نموذجا)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة (مرقونة)، جامعة مدر بن أحمد - وهران ٢-، كلية العلوم الاجتماعية، السنة الجامعية: ٢٠١٥ - ٢٠١٦.
- محمد المزوغي: (فوكو) والجنون الغربي، منشورات كارم الشريف، تونس، ط ١، ٢٠١٠.
- حسين موسى: ميشيل (فوكو) (الفرد والمجتمع)، دار التنوير، تونس، لا ط، ٢٠٠٩.
- Michel Foucault: Histoire de la sexualité (L'usage des plaisirs), Tome 2, Gallimard, paris, 1984.
- Michel Foucault: Histoire de la sexualité (Souci de soi), Tome 3, Gallimard, paris, 1984.
- Michel Foucault: dits et écrits (19541988-), vol 4, Gallimard, paris, 1988.